مقومات بناء المجتمع الإسلامي

- دراسة قرآنية تربوية -

أ.د. محمد كاظم الفتلاوي[1]

خلاصة

إنّ التجمعات البشرية، ما لم يكن لها مقومات تُعزّز بها وجودها، وتضمن لها استمراريتها، وتحافظ بها على هويتها، يكون مصيرها الأفول أو الذوبان في مجتمعات أخرى وافدة أقوى منها في مقوماتها.. والمجتمع الإسلامي، مجتمع منهجه قرآني ربّاني، لذلك، فمُقومات وجوده راسخة الثبات، متكيفة مع كل زمان ومكان، محافظة على هويته ومعاملاته على وِفق أحكامه، مُتجاهر في شعائره العبادية..؟؟

في هذه البحث، تمّ تسليط الضوء على هذه المقُوِّمات، من خلال الآيات القرآنية، وآراء المفسرين التربوية فيها، وقد جاءت خطة البحث، مُكونة من أربعة مطالب، المطلب الأول، عن مُقوم الإنسان، والمطلب الثاني، عن مُقوم الروابط الاجتماعية، فيما عالج المقوم الثالث، الضوابط الاجتماعية، أما المقوم الرابع، فهو الأرض، بالإضافة إلى خاتمة، أشرنا فيها إلى أهم وأبرز النتائج التي توصل إليها هذا البحث...

الكلمات المفتاحية:

القرآن- مقومات - المجتمع الإسلامي - الروابط الاجتماعية - الضوابط الاجتماعية.

---

1 - جامعة الكوفة، كلية التربية (المختلطة)، النجف الأشرف - العراق.

المقدمة

إنّ غاية كل المجتمعات البشرية في العالم، مهما كانت عقيدتها وانتماؤها، هي الحصول على الفلاح، والوصول إلى النجاح، وتحقيق السعادة بالفوز بالحياة الطيبة. وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى، لابدّ لهذه المجتمعات من وجود مقومات تنطلق منها، في تنظيم مسير حياتها اليومية، وقواعد ثابتة تحتكم إليها، لتفادي الاختلاف والصراع المُفضي إلى الفوضى والضياع. ولتُحقّق هدفها المنشود، وضعت المجتمعات مُقومات لنهوضها، وارْتأت لنفسها ما تظنه خير لها. والمُتأمّل في عاقبتها، وجدها إما انْقضت وصارت عِبرة في التاريخ للتّالين، أو تتخبط في الأزمات، بحيث لا تكاد تُعالج مشكلة اجتماعية، حتى تقع في مشكلة أخطر منها.

لكنّ السّماء لم تترك أهل الأرض يموجون في العتمة، بل أرسل الله الرُّسل والأنبياء، مُبلِّغين بما يصلح حال البشر وهدايتهم في مُعترك الحياة والوجود، إلى سُبل الرشاد والعيش الآمن، بما ينسجم مع الفطرة السليمة التي خلقها الله سبحانه فيهم، وما بثّه فيها من نوازع إنسانية، قال تعالى:﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[الملك:14]، فلا تخفى عليه سبحانه خافية بما يصلح حالهم.

وعليه، كان التوجيه الإلهي والتأكيد القرآني، على أن يكون بناء المجتمع الإسلامي على وفق منظور السماء، ومقوماتها التي لا مناص من تحقيقها، ولا رأي لقول البشر أمام حكمة رب البشر جل في علاه، قال تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[هود:12]. ولا يُمكن أن تتحقق الاستقامة بكل حيثياتها ومعانيها، إلا باتّباع ما أمرنا الله عزّ وجل به، وممّا أمرنا به سبحانه لتستقيم أمورنا، مُراعاة المقومات التي تكون نتائج ثمارها في الدارين.

سبب اختيار موضوع البحث: حاجة المجتمع الإسلامي لمثل هذه المواضيع في هذا العصر، وذلك لما يُواجهه من هجمات غربية وعادات وافدة أصابته بالضعف والشتات، فأراد الباحث أن يُوضِّح المقومات الحقيقية التي تنهض بالمجتمع الإسلامي المعاصر، لأنّ هذه المقومات هي التي قام عليها

المجتمع الإسلامي الأول.

أهمية الموضوع: إنّ أيّ مجتمع باعتباره كياناً قائماً بذاته، لابدّ له من مقومات تدعمه ويرتكز عليها، وتكاد تكون هذه المقومات مشتركة بين المجتمعات كلها، لكنّ المجتمع الإسلامي تميز عن غيره في هذا المجال وكان تميزه من جهتين:

الجهة الأولى: جعل العقيدة بكل مظاهرها، والشريعة بكل أحكامها، الأساس الأكبر الذي تُبنى عليه المقومات الأخرى، إذ لا قيمة لأيّ مُقوّم لا تكون العقيدة والشريعة متمثلة فيه قائمة عليه، وهذا ما ظهر جليًّا في تربية المعصوم (النبي(ص) والإمام(ع)) للمسلمين، أفراداً وجماعات، حيث « كان هدف حفظ الشريعة الإسلامية، من أهم الأهداف التي استهدفها الأئمة، من بناء الجماعة الصالحة، حيث كانوا يسعون إلى تحقيق هذا الهدف في زمن حضورهم، كي لا تُبتلى الشريعة بعد غيابهم، بالتّحريف والضياع»[1].

وهذا الهدف، مهّد الطريق للمُقوّمات الأخرى، لتُصبح مكونات معتبرة، وهو ما حرصنا على إبرازه حين عرضنا لهذه المقومات، وبيّنا كيف أنّ الإسلام صبغها بصبغة عقيدية، وصاغها صياغة إسلامية، ومن هنا كان التميزُّ وكانت الآثار الإيجابية.

أما الجهة الثانية، فبما أوجدته تعاليم السماء من مواصفات، وبما وضعته من اعتبارات تُجاه هذه المقومات، فجاء هذا المجتمع متميزاً بتميز مقوماته، وهو ما سنوضحه في هذا البحث.

كما وتكمن أهمية البحث أيضًا، في كون غياب الوعي بهذه المقومات لدى الإنسان المسلم، ساعد على اضطراب مفهوم القيم في ذهنه وانحراف سلوكه عن معايير الأخلاق الإسلامية، إما تطرفًا في فهم الدين أو بُعداً عنه، وترتّب على ذلك، ظهور الكثير من الأفكار والمعتقدات المختلفة بتعاليمها وقيمها المنافية لقيم الإسلام ومعتقداته، فكان هذا البحث محاولة لتسليط الضوء على هذه المقُومات.

هدف موضوع البحث: إذا كان شرف المطلوب بشرف نتائجه، فإنّ موضوع إصلاح المجتمع الإنساني، والحفاظ على مقوماته الفكرية والسلوكية، هي غاية الرسالات السماوية ووظيفة الأنبياء والمرسلين جميعاً، وواجبات الأولياء والمصلحين، وغاية وطموح وآمال كل المجتمعات اليوم، لأنّ أعظم الأمور قدرًا، وأعمّها نفعًا، ما استقام به أمر الدين والدُّنيا، وانتظم به صلاح المجتمعات، ولا يتحقّق هذا الهدف

1- محمد باقر الحكيم، دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، ج1، ص50.

إلا بالرّجوع إلى ما خطّتة السماء، وأكدّه الأنبياء، وجاء به القرآن الكريم، وطبّقه النبي الخاتم والعترة الطاهرة من أهل بيته الكرام.

خطة البحث: يرى الباحث أنّ المقومات الأساسية التي يكون عليها بناء المجتمع الإسلامي – بعد المُقوم العَقدي المُهيمن عليها – والتي من خلالها تتكون هويته المستقلة وحيويته المتجسّدة في تطبيق تعاليم السماء، وأحكام الدين شكلاً ومضموناً، هي في أربع مُقوّمات رئيسة - حسب رأي الباحث -، كانت في مطالب أربعة، المطلب الأول منها، مُقوم الإنسان المسلم، والمطلب الثاني، عن مُقوم الروابط الاجتماعية، والمطلب الثالثُ عن الضبط الاجتماعي، وأما المطلب الرابع، فكان عن مُقوّم الأرض، بالإضافة إلى خاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع.

توطئة

قبل الولوج في مطالب هذا البحث، من الضرورة بيان معنى المقومات في اللغة والاصطلاح.

أولاً: معنى المقوّمات في اللغة: جمع مُقوّم، وهي مأخوذة من قوّمت الشيء عدلته، وقَوَّمْتُه: عَدَّلْتُه فهو قَوِيمٌ ومُسْتَقِيمٌ، والمُقوم يعني: الغير معوج[1]. والقوام كسحاب، العدل، ومنه قوله تعالى:(**وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا**)[الفرقان: 67]، والقوام ما يُعاش به، ويقوم بحاجته الضرورية[2]. ومنه قوله تعالى:﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**﴾[النساء:5].

قال الزَّجاج: أيّ قيامًا ما تُقيمكم فتقومون بها قيامًا. وقال الفراء يعني: التي بها تقومون قيامًا[3]. ومنه قول أمير المؤمنين علي(ع): «إنما الأئمة قوام الله على خلقه»[4]. أي: يقومون بمصالحهم، وقيِّم المنزل: هو المدبر له.

وهنا يُمكن القول: إنّ مُقومات بناء المجتمع الإسلامي في الاصطلاح هي: الأشياء التي لا تستقيم حياة المجتمع المسلم غالباً إلا بها، بحيث إذا فُقدت اضطربت الحياة فيه، فهي أمور ضرورية لحفظ استقرار الحياة، وديمومتها بين أفراد المجتمع الواحد، وصيانة هويتهم الاعتقادية.

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة (ق و م)، ج9، ص200.
2- الزبيدي، تاج العروس، ج19، ص594.
3- الزبيدي، تاج العروس، ج19، ص594.
4- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج9، ص154.

● المطلب الأول: مُقوم الإنسان

اعتنى الإسلام بالإنسان الفرد، عناية لا مثيل لها، بُغية تهيئته ليكون المُقوّم الأول في بناء المجتمع، وظهرت هذه العناية الإلهية منذ الخلق والتكوين، فقد خلقه في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، وكرّمه الله بأن سخّر له ما في السماوات وما في الأرض، وجعله خليفة له في الأرض. وقد تُوِّجت هذه العناية بشريعة الإسلام، وبما تضمنته نصوص القرآن الكريم من هدايات وتوجيهات تخص بناء الفرد المسلم في جميع المجالات[1].

وقد كان من أهداف كل ذلك، بناء الفرد المسلم بشخصية متوازنة، مستقلة وعميقة البُعد، قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾[الشمس: 7]، ويُلاحظ أنّ الآية ذكرت كلمة «نفس» نكرة، وفي ذلك إشارة إلى ما في النفس من عظمة تفوق قدرة التصور، وإلى ما يُحيطها من إبهام، يجعلها موجوداً مجهولاً» (ناصر مكارم الشيرازي، ٢٠/٢٣٦)، وقال تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾[الشمس: 9-10]، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الإنسان إذا ما زكىّ نفسه، فإنه سيصل إلى درجة الفلاح والكمال، أما إذا أهمل هذه التزكية واتّبع هواه واستسلم للشهوات والرغبات، فقد ينحط لمستوى الأنعام، وبذلك، أصبح كائنًا مختارًا ومسؤولا، يستطيع أن يتسلّق سُلّم الكمال الإنساني، ليفُوق الملائكة بكمال عقله، أو ينحطّ في فكره وسلوكه، لينحدر عن مستوى الأنعام والبهائم، ليبلغ مرحلة (بل هم أضل).

وفي هذا المعنى يقول أمير المؤمنين علي(ع): «إنّ الله عز وجل ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته، فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله، فهو شرّ من البهائم»[2].

وهذا ما جعل من هذا الإنسان - بحق -، مخلوقًا متميزًا بعقله، عاملاً به، ومجتنباً لهوى النفس، حيث صار خليقًا لأن يُصبح خليفة في الأرض، وأهلاً للقيام بواجباته تُجاه نفسه، وتُجاه مجتمعه كما أسلفنا.

إنّ الإنسان في رأي القرآن الكريم هو خليفة الله سبحانه على الأرض، وقد علّمه الأسماء كلها، أسجد له جميع ملائكته، قال تعالى:﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)**

1- محمد كاظم الفتلاوي، المنظور القرآني في بناء الإنسان، ص37.
2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج57، ص299.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:30-34]

إنّ القرآن الكريم حافلٌ ببيان مقام الإنسان، وكونه المقُوم الأساس في كل هذا الوجود، ولعلّ آخر الآيات من سورة الأنعام، فيها إشارة إلى أهمية مقام الإنسان ومكانته في عالم الوجود، إذ عمدت إلى تقوية دعائم التوحيد، و رفض الشرك، يعني أن « يعرف الإنسان قيمةَ نفسه، كأرقى وأفضل كائن في عالم الخلق، وأن لا يسجُد للخشب والحجر، ولا يركع أمام الأصنام المختلفة الأُخرى، ولا يقع في أسرها، بل يكون أميراً وحاكماً عليها، بدل أن يكون أسيراً ومحكوماً لها»[1].

إنّ الإنسان الذي هو خليفة الله عز وجل في أرضه، والذي سُخرت له ما في السماوات والأرض، لا يجوز أن يسمح لنفسه بالسقوط، إلى درجة السجود للجمادات، أو عبادة المخلوقات المُسخرة له، أو الإيمان بالمعتقدات غير المعقولة.

وبعد ذلك، يُشير -سبحانه وتعالى- إلى تنوع المواهب والاستعدادات لدى الإنسان، سواء البدنية منها أم الروحية، والحكمة من هذا التنوع والاختلاف والتفاوت، تتجلّى في الاندماج الحياتي والعلاقات الاجتماعية، وعليه يكون الامتحان، فيقول سبحانه: ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾[الأنعام:165]، من المواهب المتنوعة والمتفاوتة ليختبركم بها.

ثمّ يُشير في خاتمة الآية إلى حرية الإنسان في اختياره طريق السعادة والنجاح، أو طريق الشقاء والخسران، نتيجة هذه الاختبارات والابتلاءات، إذ يقول عز وجل: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[الأنعام:165]، أي سريع العقاب مع الذين يفشلون في هذا الاختبار ولا يُصححون مسارهم، وغفور رحيم للذين ينجحون فيه، ويسعون لإصلاح أخطائهم»[2].

ومفهوم الخليفة، يُوضح تمام الوضوح، أنّ مُقوِّم الإنسان، يكمن في استقلال البشر وحريتهم في التصرف على الأرض، أما السُّبل المرسومة له والخطوط المكتوبة عليه، والمنهاج المتَّبع، فكل ذلك

1- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير القرآن، ج4، ص288.
2- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير القرآن، ج4، ص288.

موجود في النصائح والإرشادات التي قرّرها الله سبحانه لخليفته الإنسان.

وممّا أسهم في تحقيق هذه الغاية العظمى والمهمة الأسمى، أنّ الله تعالى أودع في الإنسان نزعتين متباينتين في الظاهر، لكنهما متكاملتان وهما»[1]:

1 - النزعة الفردية، وهي التي تجعله يحب الخير لنفسه، ويدفع الشر عنها، ويحرص على تحقيق ذاته.

2 - النزعة الاجتماعية، وهي التي تدفعه إلى صفّ الجماعة وحضن المجتمع، لأنّ الله تعالى جعل بحكمته حاجة الفرد إلى الفرد، كحاجة العضو إلى العضو، في الجسد الواحد، ويُفهم هذا إذا عُلم أنّ سلوك الفرد ورغباته، كالحبّ والوفاء والتميز والفخر، لابدّ لها من محيط اجتماعي تُمارس فيه.

يُضاف إلى هذه الدوافع الفطرية، دوافع مكتسبة، أوجدها الشارع الحكيم من خلال تشريعات وتكاليف خُوطب بها الفرد، ولها اتصال مباشر بالمجتمع، وهذا ملحوظ في العبادات كلها فهي «شعور مكتمل العناصر، يبدأ بالمعرفة العقلية، ثم بالانفعال الوجداني، ثم بالنزوع السلوكي الذي هو الغاية الكبرى»[2]. من تشريعها، فالحياة داخل المجتمع، تمنح الفرد قوة فوق قوته.

إنّ المتأمل في مكانة الفرد في الإسلام، وما أحيط به من عناية وتهيئة، يُدرك أنه أهلٌ لأن يكون المقوم الأول في بناء المجتمع، لأنّ « الفرد هو الذي يكوّن المجتمع بتعايشه وتعاونه مع سائر الأفراد، وهو الذي يؤدي أيضاً إلى حدوث التحوّلات والتطورات فيه»[3].

باعتباره اللبنة الأولى في الأسرة، تلك الأسرة التي تؤلف مع مثيلاتها، المجتمع الرباني.

● المطلب الثاني: مقوم الروابط الاجتماعية

فُطر الإنسان على حبّ الانتماء إلى المجتمع، فهو يميل بطبعه إلى بني جنسه ويكره العزلة، كما أن طبيعة الإنسان لا يمكن أن تكتمل إلا من خلال انتمائه للمجتمع، ذلك « أنّ الاجتماع ما هو إلاّ تعبير عن غريزة مُستكنة في أعماق نفس الإنسان، والجماعة صفة لازمة من صفاته»[4].

وحيثما وُجد تجمع إنساني برزت - بلا شك - روابط اجتماعية وصلات، هي «عبارة عن فكر وسلوك»[5]

1- شاهين محمد، علم الاجتماع والمجتمع المسلم، ص85.
2- محمد كاظم الفتلاوي، الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني، ص173.
3- محمد تقي فلسفي، النظرة القرآنية للمجتمع والتأريخ، ص204.
4- شاهين محمد، علم الاجتماع والمجتمع المسلم، ص85.
5- شاهين محمد، علم الاجتماع والمجتمع المسلم، ص29.

تنمو وتعمل في ظل التفاعل الاجتماعي بين الأفراد.

والعلاقات الإنسانية، منها ما يكون مرتبطا بعقد، كالزواج والشراكة والإيجار، أو لا تخضع لعقد، كالصداقة والحبّ والجوار، لأنها تعتمد على تفاهم أشخاص مختلفين في البيئة والتربية والثقافة والذكاء والتجربة والطباع والأمزجة والقيم. ومن الباحثين من يقسم هذه الروابط إلى فطرية كالقرابة، وإلى مكتسبة كالجِوار[1].

وعلى كل حال، فهي ظواهر نمت في ظل الاجتماع، وتولّدت منه، بسبب شعور كل فرد بحاجته إلى التعاون مع الآخرين والارتباط بهم، تحقيقاً للمصالح المشتركة، وهو ما كشف عنه ابن خلدون بقوله: « إنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته، فلا بدّ من اجتماع القدر الكبير من أبناء جنسه..»[2].

ويجدر بنا أن نذكر في هذا المقام، تميُّز المجتمع الإسلامي عن غيره في مجال الروابط الاجتماعية، فهو وإنْ أقرّ كثيراً من الروابط ورعاها حقّ رعايتها، إلاَّ أنه جعل الرابطة العظمى والعروة الوثقى، رابطة العقيدة، وما يترتّب عليها من تشريعات وهدايات، لأنها المرجعية الأولى والعليا لأبناء المجتمع الإسلامي، في كل ما يصدر عنهم من سلوك وتصرفات، فكان للإيمان بالله تعالى دور ظاهر في إيجاد روابط اجتماعية، وفي تهذيب روابط أخرى، كان قد أقرّها العُرف من قبل[3].

وفي تأكيد هذا المعنى الأساس في التعامل مع بني البشر، يقول الإمام جعفر الصادق(ع): «من أوثق عُرى الإيمان، أن تُحبّ في الله وتبغض في الله، وتُعطي في الله، وتمنع في الله»[4]. وقال(ع): «كلّ من لم يُحب على الدين، ولم يُبغض على الدين فلا دين له»[5].

إنّ الإسلام يعتمد في بناء مجتمعه، على قوة الرابطة التي يضعها بين المسلمين، ويجعل منهم جسدًا واحداً يتّجه بقوة إلى غاية واحدة، ذلك ما يصوره الحديث النبوي المشهور: «مَثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[6].

ومن الموارد التي أكّد عليها القرآن الكريم، في مُقوّم الروابط الاجتماعية ما نلاحظه في جملة من

1- محمد طاهر الجوابي، المجتمع والأسرة في الإسلام، ص14.
2- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص79.
3- محمد كاظم الفتلاوي، المجتمع الإسلامي المعاصر، ص67.
4- محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج2، ص125.
5- محمد بن يعقوب الكليني، ج2، ص127.
6- أحمد بن حنبل، المسند، ج4، ص270.

الآيات القرآنية التي تنوعت في خطاباتها، لتشمل شرائح مختلفة من الطبقات الاجتماعية، والتي كان منها ما يخصّ العلاقات الأسرية.

ومن جملة العلاقات الأسرية، العلاقة بين الزوجين، وهو ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الروم:21]، إذ نلحظ التعبير القرآني اللطيف والذي يُصوّر هذه العلاقة تصويراً موحيًّا، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحسّ: (**لتسكنوا إليها**)، (**وجعل بينكم مودة ورحمة**)..

(**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**).. ليُدركوا حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر. ملبياً لحاجته الفطرية: النفسية والعقلية والجسدية. بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار، ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة، لأنّ تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي، ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية، لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد[1].

ومن هذه العلاقات الأسرية في القرآن الكريم أيضًا، العلاقة مع الوالدين، إذ إن برَّ الوالدين والإحسان إليهما، من أعظم الأعمال المقربة إلى الله عز وجل، لذا، قرن الباري سبحانه برّ الوالدين والإحسان إليهما بتوحيده. قال الله تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾[النساء:36]، تُشير هذه الآية الكريمة إلى العلاقة مع الوالدين، وتُوضّح حقّهم وتُوصي بالإحسان إليهما، والمتتبع لتوصيات القرآن الكريم، يلحظ أنّ حقّ الوالدين من القضايا التي يهتم بها كثيراً(أنظر: البقرة:83، الأنعام:151، الإسراء:23، بالإضافة إلى الآية محلّ الشاهد)، و«قلّما حظي موضوع بمثل هذا الاهتمام والعناية، فقد جاءت التوصية بالوالدين، بعد الدعوة إلى التوحيد في العبادة، في أربعة مواضع في القرآن الكريم»[2].

ومن هذا التأكيد المُتكرر بالتعابير المتنوعة، يُستفاد أنّ ثمّة ارتباطاً بين مسألتين، مسألة الوجود ومسألة الإحسان، والقضية في الحقيقة تبدو كالتالي: حيث إن أكبر نعمة أنعمها الله سبحانه على الإنسان هي نعمة الوجود في الحياة، ومصدرها الباري سبحانه في الدرجة الأولى، فيما ترتبط قضية الوجود بالوالدين في الدرجة الثانية، لأنّ الولد جزء من وجود الوالدين في الدنيا، لذلك كان ترك حقوق الوالدين وتجاهلها، وعقوقهما، في مصاف الشرك بالله سبحانه، وهذا خلاف ما يريده القرآن الكريم في منظومته الاجتماعية

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5، ص176.
2- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج3، ص229.

الداعية إلى الترابط الاجتماعي.

ومن الروابط الاجتماعية ما نلاحظه في العلاقة بين الوالدين والأبناء، فقد نظَّم القرآن الكريم العلاقةَ بين الوالدين والأبناء، وأرشد إلى سُبل التربية الحميدة والآداب الكريمة، ومن ذلك إرشاد القرآن الكريم إلى اختيار الزوج والزوجة(الوالدين) لبعضهم، حتّى يكوّنوا أسرةً قادرةً على تنشئة أبنائها تنشئةً سليمة طيبة، قال الله تعالى: ﴿**وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**﴾[البقرة:221]. قد يرى الرجل المرأة الجميلة الحسناء، ولكنها منحرفة العقيدة، ويرى امرأة ولكنها - على وفق حسابات البعض ممّن لا حظ له من الدين - أنها ليست من الأوساط الاجتماعية المرموقة، ولكنها مُتّصفة بالدين والأدب، والتقوى هي المعيار الأوحد في معرفة مقامات الناس، لأنّ «المقصود من التفضيل في قوله: (خير)، التفضيل في المنافع الحاصلة من المرأتين، فإنّ في تزوج الأمة المؤمنة منافع دينية، وفي الحُرة المُشركة منافع دنيوية، ومعاني الدين خير من أعراض الدنيا المنافية للدين، فالمقصود منه بيان حكمة التحريم استئناسًا للمسلمين..»[1].

ومن الروابط الاجتماعية العلاقة مع الأقارب، وصِلة الرحم، والمراد بصلة الرحم، ذي القرابة، ولهم حقٌّ كبير شرع الإسلام، وعليه، فإنّ الله تعالى لعن الذين يقطعون الرحم. قال الله تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**﴾[محمد: 22-23]، ونلحظ أن في الآية تهديد واضح للذين يعرضون عن اتباع الحق والعمل به، ولا سيّما جنايتهم المترتبة بهذا الاعتراض، وهي تمزيق نسيج الأقارب، وتفكيك أواصر المحبة وتقطيع الأرحام وعدم صلتها، وما خصّ القرآن الكريم بالذكر قطع الأرحام، دون سائر الأمور، إلا لخطرها وأهميتها عند الله سبحانه، فكان عاقبة ذلك عليهم، أنْ لعنهم، يقول العلامة محمد حسين الطباطبائي: «الإِشارة إلى المفسدين في الأرض المقطعين للأرحام، وقد وصفهم الله بأنه لعنهم فأصمَّهم وأذهب بسمعهم، فلا يسمعون القول الحق، وأعمى أبصارهم، فلا يرون الرأي الحق، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور..»[2].

إذن، الآية تخاطب المنحرفين المعرضين عن الدعوة الصالحة في كل زمان ومكان، وتُخبرنا ما كان من هؤلاء، إلا وضع في طريق إتمام بنائها العراقيل، فهل ينتظرون أنْ يظلوا على الفساد الذي نشأوا عليه

1- ابن عاشور، تفسير: التحرير والتنوير، ج2، ص343.
2- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج18، ص241.

في الأرض عمومًا، أو في تقطيع الأرحام، فهم يجنون على أنفسهم، ألم ينظروا إلى مَنْ سبقهم من الآباء والأجداد أين ذهبوا، إنّ مصيرهم كمصيرهم، فالحذر من ارتكاب هذه المعاصي، فالعواقب واحدة، وهي الهلاك، والمصير ذاته في العذاب.

ومن الروابط الاجتماعية، العلاقة مع المجتمع، معلوم إنّ الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي لا يمكن عزله عن الآخرين، فقد نشأت بينه وبين أفراد مجتمعه علاقات مختلفة نتيجة التعامل والتفاعل، وتبدأ علاقة الفرد بأسرته أولاً، ثم تتّسع إلى المجتمع الذي يحيط به، وكلما اتّسع نطاق المجتمع، واختلفت احتياجات الإنسان، تنوعت وزادت علاقاته الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية كثيرة ومتنوعة، وقد حثّ عليها القرآن الكريم، وضبطتها سُنة الرسول(ص)، لبناء صرح مجتمعي إسلامي عامر وآمن، ونكتفي هنا بذكر مُقوّم العلاقة مع الجيران.

حقُّ الجيران من الحقوق التي فرضتها تعاليم الإسلام، فجاء الأمر القرآني الصريح بالإحسان إلى الجار، واقتران حقِّه بتوحيد الله عز وجل وعدم الشرك به، وهذا يُعد من أقوى الأدلة على اهتمام ورعاية دين الإسلام لحقوق الجار وتعظيم قدره، قال تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ**﴾[النساء:36]، فلآية توصي الانسان المسلم بالجار ذي القربى: وهو الجار الذي قرب جواره. أو هو الذي له مع الجوار قرب واتصال، بنسب أو دين، فإن له مع حقّ الجوار حق القرابة.

وبالجار الجُنب: هو الجار الذي بعُد جواره عن جوارك، من الجنابة ضد القرابة. يقال: اجتنب فلان فلاناً إذا بعُد عنه. وقيل هو الجار الذي لا قرابة في النسب بينه وبين جاره، ويقابله الجار ذو القربى[1].

وتأكيد مضمون الآية الكريمة في وصيتها ببناء المجتمع الإسلامي من خلال رعاية مقوم العلاقات الاجتماعية، ما كان من توضيح عِدل القرآن العترة الطاهرة، يقول الإمام علي بن الحسين السجاد(ع) في حق الجار: «وحقّ جارك، فحفظه غائباً، وإكرامه شاهداً، ونصرته إذا كان مظلوماً، ولا تتبع له عورة، فإن علمت عليه سوءاً سترته عليه، وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه، ولا تسلمه عند شدائده، وتقيل عثرته، وتغفر ذنبه، وتعاشره معاشرة كريمة، ولا تدخر حلمك عنه إذا جهل عليك، ولا تخرج أن تكون سلماً له، ترد عنه لسان الشتيمة، وتبطل فيه كيد حامل النميمة. ولا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

1- محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ج3، ص232.
2- حسن القبانجي، شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين(ع)، ج2، ص169.

إنّ تطبيق هذه الوصايا القرآنية على الواقع المعاش، حري أن يعيش المجتمع في راحة واطمئنان ودعة، وأن تكون علاقاته الاجتماعية آمنة وخالية من المنغصات، وداعية إلى المحبة والوئام، وهو طموح لا يكون إلا بالالتزام بها إيمانًا واحتسابًا.

وبالتالي، ففي ضوء هذه المفاهيم لابدّ أن تكون الروابط الاجتماعية واحدة من الأسس التي يُبنى عليها المجتمع، ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إنّ المجتمع نسيج مكون من صلات اجتماعية..»[1].

● المطلب الثالث: مُقوم الضبط الاجتماعي

العلاقات الإنسانية بجميع أنواعها حسّاسة وهشة، وعُرضة في كل لحظة للانفصام، إن لم يتوفر لها التبادل في العواطف والتوازن في المصالح، وضمان العدل والمساواة للطرفين، فمصلحة كل منهما حق له، ومصلحة الآخر واجب عليه، فإذا تجاوز أحد الطرفين الحدود أو حاول استغلال الطرف الآخر انهارت هذه العلاقة وانفصمت عراها، وحلّ سوء التفاهم محلّ الوئام والانسجام.

فينشأ عن ذلك مجموعة من السلوكيات والأحاسيس والتصورات، تختلف عما يُفكر فيه الفرد ويحس به، أو يريده لنفسه، وربما اتخذت الجماعات قرارات لم يردها بعض أفرادها، لو خلوا بأنفسهم، لاختلاف الإرادة الفردية عن الإرادة الجماعية، وكأن هذا يعني وجود شخصية جماعية تفرض نفسها على الأفراد[2].

يُسمّي علماء الاجتماع هذا الذي أشرنا إليه، بالضبط الاجتماعي، ويعني ضرورة الوعي بشعور الآخرين، ومراعاة حقوقهم وانتهاج سلوك يتأثر بهذا الوعي وهذا السلوك[3].

لا شك في أن حاجة المجتمع ماسة لوجود ضوابط وأنظمة، تُطلق نشاط الأفراد في مجالات، وتحبس نشاطهم في مجالات أخرى، وتضع لهم مقاييس للسلوك تقوَّم الأمور تبعاً لها، فتعتبر بعض الأمور كريمة محببة، وتعتبر بعضها كريهاً مذموماً»[4].

لقد تنبه المعنيون بشؤون المجتمع، إلى أهمية هذا الأساس في بنائه، وكان غاية ما توصلوا إليه من أجل تحقيق هذا الغرض، ما سُمّي بنظرية العقد الاجتماعي، والتي اتضحت معالمها على يد العالم

1- أمين المصري، المجتمع الإسلامي، ص12.
2- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص401.
3- محمد عاطف، قاموس علم الاجتماع، ص410.
4- أمين المصري، المجتمع الإسلامي، ص13.

الشهير (جان جاك روسو (ت:1778م))، وهذه النظرية هي « فكرة مادية تقوم في حقيقتها على تبادل المصالح والتعايش بين الناس، لينال كلّ منهم حقوقه، وهي محاولة لا بأس بها لكف نوازع العدوان والتسلط..»[1]. لكنها لا تقوى هي ولا مثيلاتها بحال من الأحوال، على التأليف بين قلوب أفراد المجتمع، ولابثّ المحبة بينهم، ولا زرع روح التسامح في المجتمع، فهي لا تزيد على كونها محاولة للتوفيق بين الرغائب، والملاءمة بين المصالح، حتى لا يحدث تصارع ولا اختلاف ولا تقاطع.

اما دين الإسلام، فله منهج في هذا المجال ما عرفت البشرية في تاريخها الطويل منهجاً يُوازيه أو يُدانيه، سلك فيه مسالك متنوعة، وقد أتت ثمارها، وكان من ذلك أن زيّن بالترغيب لأفراد المجتمع طريقاً سهلاً موصلاً للجنة ولرضوان الله عز وجل، عن طريق محبة الآخرين، وتأكيد ذلك ما نلحظه في قول الإمام الصادق(ع): «كان علي(ع) يقول: لا تغضبوا ولا تعضبوا (في بعض النسخ [ولا تعصبوا] . ولعل الصحيح « ولا تعضبوا « أي لا تقطعوا»، افشوا السلام وأطيبوا الكلام/ وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام، ثم تلا(ع) عليهم قول الله عز وجل: ﴿**السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ**﴾[الحشر:23]، والمهيمن: أي القائم على خلقه بأعمارهم وآجالهم وارزاقهم[2].

لقد جعل الإسلام انتشار المحبة المتُبادلة بين أفراد المجتمع، علامة على تحقُق الإيمان، ورتّب عليها دخول الجنة، وهذا من أعظم الحوافز التي توضع بين يدي المسلم اليقظ، ولا شك أنّ المحبة في الله عز وجل إذا فشت بين أفراد المجتمع، كان لها من الآثار والثمار ما هو كفيل بتجاوز كثير من الأزمات، ونمو التسامح في المعاملات.

كذلك رغبّ الإسلام أبناءه في العناية بقضايا المجتمع وحاجات أفراده، وحثهم على تجنب أذيتهم، ورتّب على هذا مكاسب عظيمة نلحظها في حديث المعصوم(ع) واضحة جلية، قال الإمام جعفر الصادق(ع): « المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله، لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه»[3].

وقال(ع) أيضًا: « أيمّا مؤمن نفّس عن مؤمن كربة وهو معسر، يسّر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة، قال: ومن ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة، قال: والله

1- مصطفى عبد الواحد، المجتمع الإسلامي، ص41.

2- محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج2، ص645.

3- محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج2، ص166.

في عوْن المؤمن، ما كان المؤمن في عون أخيه، فانتفعوا بالعظة وارغبوا في الخير»[1].

وقال الإمام أيضاً: «أنّ النبي قال: من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً يُنادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»[2]. وعنه(ع) قال: «قال رسول الله: الخلق عيال الله، فأحبّ الخلق إلى الله من نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيت سرورًا»[3].

لقد أوجدت هذه النصوص الشرعية وأمثالها، رقابة ذاتية لدى الإنسان المسلم، وحافزاً داخلياً يحمله على التفاعل الإيجابي مع أبناء مجتمعه، وجعلته يستحضر المسؤولية المنوطة به تُجاههم، وكانت ثمرة هذا كله، تقوية أواصر المحبة والتسامح، والنّصح والإيثار، وحُسن العُشرة وكفّ الأذى بين أفراد المجتمع، وهو ما يدعم نُظم المجتمع، ويُعزز معالم الانضباط فيه.

ولم يركن الإسلام في ضبط السلوك وحفظ الأمن الاجتماعي، إلى هذا المنهج، على الرغم من أهمية أثره الإيجابي، إنما تعداه إلى إيجاد تشريعات يحتكم إليها أفراد المجتمع عن رضا وطيب نفس، كونها ربانية المصدر، فقد نظّم الدين الإسلامي العلاقة بين أفراد المجتمع المسلم، وأوجد نُظماً تخصّ الأسرة الصغيرة والكبيرة، ونظم أمور المعاملات، ليقف كل فرد على ما له وما عليه، وهو منهج يتّسم بالواقعية، ويُسهم في ضبط قضايا المجتمع.

وقد دعت الحاجة - إضافة إلى ذلك كله- إلى وجود بعض الرّوادع، تمثلت في تشريعات تتعلق بالعقوبات على أنواعها، تقوِّم اعوجاج بعض الأفراد، وتردهم إلى الصواب، حماية لهم من شرور أنفسهم، وصيانة لأمن المجتمع، قال تعالى:﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[البقرة:179]. فهذه العقوبات رادع وقائي قبل أن يكون للجريمة وقوع وأثر، فعن الإمام جعفر الصادق(ع) قال: « قال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): مَن خاف القِصاص كفّ عن ظُلم الناس»[4].

وفي ذلك مبدأ ثنائية المسؤولية، الذي تضمّن مسؤولية الفرد والسلطة على تنفيذ القانون الإسلامي، ومسؤوليتهما عن حمل الغير على تنفيذ القانون والخضوع له أيضاً، ومن جهة ثانية، يتضمن مسؤوليتهما عن الخروج على أحكام القانون الإسلامي، مسؤولية دنيوية أمام القانون الإسلامي نفسه، ومسؤولية

1- محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج2، ص200.
2- الكافي، ج2، ص164.
3- الكافي، ج2، ص164.
4- الكافي، ج2، ص331.

أخروية أمام الله تعالى، وكل ذلك يعود على مبدأ المشروعية بمزيد من الحماية، ويعود على نظام الدولة القانونية بمزيد من خضوع السلطة والأفراد للقانون[1].

والمتتبع لأحكام الإسلام في تصنيف العقوبات التي أقرّها على المنحرفين المخالفين لأمن واستقرار المجتمع، نجدها على أربعة أصناف، وهي:

1. جرائم الاعتداء على النفس البشرية وما دونها، وفيها القِصاص أو الدية مع الشروط.

2. جرائم ضد المِلكية، وفيها القطع، والمقاصة، ووجوب رد المغصوب.

3. الجرائم الخُلقية، وفيها الرّجم والقتل والجلد.

4. جرائم ضد النظام الاجتماعي، كالحرابة والاحتكار ونحوها، وفيها الحد أو التعزير أو الغرامة، وأوجب في الدّيات غير المقدرة شرعاً، الأرش أو الحكومة.

ونكتفي على دلالة موضوع الضبط الاجتماعي - في كونه مُقوّم لبناء المجتمع الإسلامي - بمثالين قرآنيين فقط، من غير التفصيل الفقهي فيهما، فذاك خارج عن حدود بحثنا، وهما:

أولاً: ضبط جريمة السرقة: قال تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[المائدة:38]، حيث تُوضح الآية الكريمة، أنّ عقوبة السرقة هي جزاء من الله سبحانه لجريمة السرقة المرتكبة من قبل الرجل أو المرأة، حيث تقول: (جزاء بما كسبا نكالاً من الله)، والمتأمّل في هذه الآية القرآنية يجدها تُشير إلى:

1 - إنّ العقوبة المذكورة، نتيجة لعمل الشخص السارق أو السارقة، وأنها شيء اكتسبه هو أو هي لنفسهما.

2 - إنّ الهدف من تنفيذ هذه العقوبة، هو وقاية المجتمع، وتحقيق الحق والعدل فيه، لأنّ كلمة « نكال » تعني العقوبة التي تُنفذ لتحقيق الوقاية وترك المعصية، وهذه الكلمة تعني في الأصل « اللجام »، وتُطلق أيضًا على كل عملٍ يحول دون حصول الانحراف[2].

وأن تختم الآية الكريمة المتقدمة بقوله: (وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، لتلفت النظر إلى أمر مهم، هو أنّ هذه العقوبة لم تكن للانتقام والتسلط من قبل الباري سبحانه، وأنها بعيدة عن توهم بعض الناس، من كونها مجحفة وقاسية، وأن الله عز وجل قادر على كل شيء، وهو حكيم أيضاً، ولا يمكن أن يُعاقب الأفراد من

1- منير البياتي، الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي، ص490.

2- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج3، ص705.

دون وجود مُسوغ أو حساب لذلك، إذ تختم الآية: (والله عزيز حكيم)، حكيم فيما ينفع الناسُ ويصدّهم بزجر كلّ من تُسوّل له نفسه الاعتداء على أملاك الآخرين، وحين ذاك يُراجع الإنسان نفسه كثيراً، فإن أقدم على هذا الفعل، فالعاقبة وخيمة.

وبهذه العقوبة يكون الحدّ من انتشار جريمة السرقة، ويأمن الفرد على ما كان قد اكتسبه من عمل الأيام، وبذل الوسع لاستحصاله من ممتلكات، فلا يضطرب خوفاً على فقدها، ويستقر في تعايشه وتفاعله في مقوم انضباطي يحرص على سلامة أمنه وحاجياته.

أما الآية الثانية: ﴿**فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[المائدة:39]، فهي تفتح باب التوبة لمن ارتكب هذه المعصية، وتُعيده ليندمج مع المجتمع، بعد أن أخذ الدرس وطهرت نفسه وصَلُح شأنه.

ثانياً: ضبط جريمة الزنا: فاحشة الزنا من الجرائم التي عالجها القرآن الكريم معالجة فعّالة، وشرّع أحكامًا تقتضي منع السُّبل الموقعة فيها، والحدّ من تفشيه، وما إنْ ابتعد المجتمع الإسلامي عمّا احلّه الله سبحانه، ما فتئت أن عادت هذه الجريمة وتفشّت في المجتمع المعاصر بصورة مقلقة، حيث أصبحت ظاهرة اجتماعية، لا يكاد يخلو منها أي بلد من بلدان العالم.

في حين عكف العلماء وأهل الاختصاص لعقد المؤتمرات والندوات ودراسة حيثيات جريمة الزنا للحدّ منها، إلا أنهم تاهوا في بحثهم لإيجاد حلّ لهذه المشكلة، ونحن نجزم قطعاً أنّ الدواء الشافي والعلاج الأمثل، هو ما شرعه القرآن الكريم، في التعامل مع هذه الفاحشة.

لقد شرّع القرآن الكريم عقوبة ضابطة لهذه الجريمة فقال تعالى: ﴿**الزّانِيَةُ والزّانِي فاجْلِدُوا كُلّ واحِدٍ مِنهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾[النور:3]، أي: أقيموا - أيها الحكّام حدود الله تعالى على الزانية والزاني، بأن تجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، دون أن تأخذكم شفقة أو رحمة في تنفيذ هذه الحدود، ودون أن تقبلوا في التخفيف عنهما شفاعة شفيع، أو وساطة وسيط، فإن الله تعالى الذي شرّع هذه الحدود. وأمر بتنفيذها بكل شدّة وقوة، أرحم بعباده وبخلقه منكم. والرحمة والرأفة في تنفيذ أحكامه، لا في تعطيلها. ولا في إجرائها على غير وجهها(1).

وفي بيان علّة جلد الزاني بهذا الشكل، يقول الإمام علي بن موسى الرضا(ع): «علّة ضرب الزاني على جسده بأشد الضرب، لمباشرته الزان، واستلذاذ الجسد كله به، فجعل الضرب عقوبة له، وعبرة لغيره،

1- محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ج4، ص341.

وهو أعظم الجنايات»[1].

والمتأمل في العقوبات المشرعة لهذه الجريمة، يلاحظ أنها منسجمة مع مدى بشاعة وخطر هذه الجريمة على بناء المجتمع والأسرة والأشخاص، فمن عقوباتها في الدنيا هو الحَدُّ الشرعي، وهو على أنواع:

1. القَتْل: وهو حدُّ الزاني بالمُحرَّمات نَسَباً، وحَدُّ الزاني بامرأة أبيه، وحَدُّ من أكره امرأةً على الزنى.
2. الجَلْدُ، وهو الواضح في النص القرآني.
3. الرَجْمُ فقط: للمُحْصن والمُحصنة، غير الشيخ والشيخة.
4. الجَلْدُ والحَلْقُ والنَفيُ للشاب غير المُحْصَن.
5. الجَلْدُ فقط: للمرأة غير المُحصنة.

ولخطر هذه الجريمة على بناء المجتمع ما نلحظه في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا**﴾[الفرقان:68]، يقول المفسر القرطبي: وقد دلّت هذه الآية على أنه ليس بعد الكُفر أعظم من قتل بغير الحق، ثمّ الزنا[2].

كما تُؤكّد السّنة النبوية على بشاعة هذه الجريمة وخطرها على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، إذ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): « في الزّنا ستُّ خصال:

ثلاثٌ منها في الدنيا، وثلاثٌ في الآخرة، فأما التي في الدنيا فيذهب بالبهاء، ويُعجل الفناء، ويقطع الرزق، وأما التي في الآخرة، فسوء الحساب، وسخط الرحمن، والخلود في النار»[3].

ولوقاية الفرد من فاحشة الزنا، فقد عمل القرآن الكريم على تضييق فرصة الغواية أو السقوط فيها، وإبعاد عوامل الفتنة، وقطع الطريق على أسباب التهييج والإثارة، مع إزالة العوائق التي تحول دون الإشباع الطبيعي بوسائله النظيفة، من هنا عالج القرآن الكريم ظاهرة الزنا في المجتمع المسلم.

ومن الملاحظ في هذه الآية: ﴿**الزّانِيَةُ والزّانِي فاجْلِدُوا كُلّ واحِدٍ مِنهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾[النور:3]، أنها قدّمت المرأة على الرجل، فقدمت الزانية على الزاني، في حين في آية السرقة المتقدمة، قدمت السارق على المرأة السارقة، ولعل ذلك ناشئ عن حقيقة أنّ السرقة غالباً ما تصدر عن الرجال، بينما النساء

1- الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا(ع)، ج2، ص97.
2- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص76.
3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج76، ص22.

الخليعات المُستهترات يّشكلن في الغالب العامل والعنصر المُحفز للزنا والمشجع عليه!

وفي ضوء ما تقدم، تظهر أهمية الأنظمة في المجتمع ومكانة الضبط الاجتماعي، باعتباره واحداً من مقومات بناء المجتمع الإسلامي.

● المطلب الرابع: مُقوم الأرض

تُعد الأرض واحدة من الأسس التي يُبنى عليها المجتمع، وبيان هذا: أنّ الله تعالى أنزل الإسلام بأحكامه وتشريعاته ليحكم في الأرض، ويطبق على أرض الواقع، ويجسده الناس في شؤون حياتهم من أجل تقديم أنموذج حي ومثالي لمجتمع مسلم متميز.

ولا يخفى أنّ هذه الغايات الكبرى، تستدعي بعض العوامل المساعدة على تحقيقها، منها توفر حرية التصرف لدى الأفراد، والسلامة من التأثير الخارجي، ووجود مناخ مناسب لإقامة أحكام الله سبحانه وتشريعاته، ثم وجود سلطة تملك صلاحية اتخاذ القرار وتنفيذه، ويتعذر توافر هذه العوامل أو يكاد إذا لم تُوجد بقعة من الأرض تجمع المسلمين، وتكون الكلمة العليا فيها لهم.

تتضمن سيرة النبي(ص) وأهل بيته(عليهم السلام)، إشارات توضح هذا المعنى، فإن النبي لما بُعث في مكة وصار له أتباع، حرصوا على الالتفاف حول النبي(ص) وتكوين تجمع خاص بهم، متميز في كثير من نواحي الحياة عن المجتمع الجاهلي الكبير الذي يعيشون فيه، فأمكنهم التميز في جوانب كالعبادات والأخلاق، وتعذر التميز في جوانب أخرى كالمعاملات العامة، ولم يكن للإسلام يومئذ قانون نافذ، ولم يكن له قوة يستطيع بها تنفيذ تعاليمه، فكان الوازع الداخلي لدى المسلمين آنذاك، مغنياً عن القانون والسلطان[1].

لقد بحث النبي (ص) منذ وقت مبكر عن أرض يقيم بها، لينشئ مجتمعاً خاصًا بالمسلمين، فقصد أهل الطائف فلم يجيبوه، ثم عرض دعوته على أهل يثرب، فاستجاب أهلها لدعوته، وفتحوا أبواب مدينتهم أمام الرسول (ص) وجموع المسلمين من كل مكان، فكانت الهجرة من أعظم أحداث التاريخ الإسلامي على الإطلاق، لأنها هيأت الأرض ووفرت المناخ المناسب لإقامة مجتمع إسلامي مُستقل ومتميز، فبدأت معالم هذا المجتمع تبرز للعيان، وتتابعت التشريعات في شتّى المجالات، خاصة تلك التي تنظم العلاقات والمعاملات بين أفراد المجتمع الواحد.

لقد تضمّن القرآن الكريم ربطاً بين إقامة الأحكام الشرعية وبين التمكين في الأرض حين قال تعالى:

1- الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص86.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[الحج:41]. فقد سيقت الآية الكريمة في مقام الشكر، لبيان أنّ التمكين في الأرض، يقتضي شكر الله تعالى بإقامة أحكامه التي أمر بها بسبب زوال كثير من العوائق[1].

إذا فهم هذا، تبيّنت العلّة التي من أجلها شنَّع القرآن الكريم على أولئك الذين آثروا البقاء في أرض الكفر، ولم يُهاجروا إلى أرض الإسلام للانضمام إلى المجتمع المسلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً﴾[النساء:97].

فهذا الاستضعاف إنّما حلّ بهم، بسبب ركونهم إلى أرض الظالمين - لو كانوا صادقين فيه - فكان بمقدورهم أن يغيروه بالخروج والمهاجرة إلى أرض الإسلام، فكان أن وبّختهم و» كذبتهم الملائكة في دعوى الاستضعاف، بأن الأرض أرض الله كانت أوسع مما وقعوا فيه ولزموه، وكان يمكنهم أن يخرجوا من حومة الاستضعاف بالمهاجرة، فهم لم يكونوا بمستضعفين حقيقة لوجود قدرتهم على الخروج من قيد الاستضعاف، وإنّما اختاروا هذا الحال بسوء اختيارهم»[2].

ونفهم من حادثة الهجرة الشريفة للنبي الخاتم(ص)، أنّ الدين أينما يحل ويُعبرّ عنه بأمان، ويستطيع الإنسان المسلم ممارسة عباداته وشعائره، فإنّ الأرض التي تفسح له المجال بذلك هي وطنه، وأنّ الأرض التي تحارب الاعتقاد وتضيق على المؤمنين في إقامة دين الله سبحانه وتعيقهم عن الترجمة الحقيقية لما جاء به القرآن الكريم، من منهج للحياة، فليست تلك الأرض بوطن لهم، وإنْ كانت ولادة المسلم فيها، فلا عبرة للجنسية والقومية في المنظومة الإسلامية.

وفي تأكيد هذا المعنى، قال أمير المؤمنين علي(ع): « ليس بلد بأحق بك من بلد، خير البلاد ما حملك»[3]. أي حيث يتمكن الإنسان فيه من ممارسة شؤون حياته على وفق تعاليم دينه، وما ورد فيه من أحكام المعاملات.

في ضوء ما تقدم، يُمكن القول: إنّ مُقوّم الأرض من أسس بناء المجتمع الإسلامي، ويتعذر إقامة مجتمع إسلامي واضح المعالم، ما لم يكن للمسلمين أرض، لهم فيها القول والفصل.

1- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص280.
2- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج5، ص44.
3- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج20، ص91.

خاتمة

يُمكن في نهاية هذا البحث التأكيد على النتائج التالية:

1 - إنّ لكل مجتمع مهما كانت فلسفته ورؤيته للوجود، فلا بدّ له من مقومات يعتد بها ويُحافظ عليها.

2 - إنّ المجتمع الذي لا يملك مقومات وجوده ومقومات بقائه، مجتمع خائر القوى فاقد البوصلة.

3 - في القرآن الكريم، منهج إنساني كامل منسجم مع الإنسان في كل زمان ومكان، يهتم بالفرد وخصائصه الفطرية، وبالمجتمع وسماته الإسلامية.

4 - جعل القرآن الكريم من الإنسان مخلوقاً متميزاً بعقله، عاملاً به ومجتنبًا لهوى النفس، وقد صار خليقًا لأن يُصبح خليفة في الأرض، وأهلاً للقيام بواجباته تُجاه نفسه وتجاه مجتمعه.

5 - إنّ الروابط الاجتماعية، مُقوم لا يمكن أن ينفكّ عنه الإنسان بحال من الأحوال، لأنّ الإنسان اجتماعي بالفطرة.

6 - من لوازم الروابط الاجتماعية، أنّ تسبب الاختلاف والاحتكاك بين الأفراد، ومن ثمّ لا بدّ أن يكون هناك ضوابط تحافظ على سير هذه الروابط وانْسيابيتها وجني ثمارها، فكان لا بدّ من وجود مُقوم الانضباط الاجتماعي، ووضع عقوبات تقي الفرد والمجتمع من الوقوع في الفوضى والظلم.

7 - إنّ العقوبات الشرعية، ما كانت إلا لصلاح المجتمع وتهذيب الفرد، وليس فيها قسوة إلا بقدر ردع للمجرم، وحماية الفرد والأسرة والمجتمع من مخاطر الجرائم، ومن ذلك ما لاحظناه في عقوبة السرقة والزنا.

8 - إنّ مُقومات المجتمع الإسلامي، وإن كانت في عمومها موجودة في المجتمعات الأخرى، إلا أنّ ارتباطها العقدي بالقرآن وبالسُّنة، أكسب المجتمعَ الإسلاميَّ مصادر المناعة والقدرة على التعامل مع عوامل التدافع الحضاري، والتكيّف مع مناخ كل بيئة، دون أن تُفقده عناصر القوة.

9 - إنّ غياب الوعي بهذه المُقومات لدى الإنسان المسلم، قد ساعد على اضطراب مفهوم القيم في ذهنه وانحراف سلوكه عن معايير الأخلاق الإسلامية، إما تطرفاً في فهم الدين أو بُعدًا عنه، وترتّب على ذلك، ظهور الكثير من الأفكار والمعتقدات المختلفة بتعاليمها وقيمها المنافية لقيم الإسلام ومعتقداته.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، دار الأضواء، لبنان/بيروت، ط2، عام 2003م.
- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.
- أحمد بن محمد بن حنبل، مسند أحمد، دار الحديث، مصر/القاهرة، طبعة عام 1995م.
- أمين المصري، المجتمع الإسلامي، دار الأرقم، الكويت، طبعة عام 1980م.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، لبنان/بيروت، طبعة عام 1994م.
- حسن القبانجي، شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين(ع)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان/بيروت، 2002م.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار شروق، مصر/القاهرة، ط34، عام 2004م.
- شاهين محمد، علم الاجتماع والمجتمع المسلم، مكتبة وهبة، مصر/القاهرة، عام 1981م.
- الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، دار السلام، مصر/القاهرة، طبعة عام 2005م.
- الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، بلا تاريخ.
- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، لبنان/بيروت، طبعة عام 1990م.
- محمد باقر الحكيم، دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، العراق/النجف الأشرف، ط5، عام 2007م.
- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، تحقيق: محمد تقي اليزدي، دار إحياء التراث العربي، لبنان/بيروت، ط3، 1983م.
- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار البيان العربي، مصر/القاهرة، 2008م.
- محمد بن علي القمي، عيون أخبار الرضا(ع)، مؤسسة الأعلمي، لبنان/بيروت، ط2، عام 2005م.
- محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط3، 1367هـ.
- محمد تقي فلسفي، النظرة القرآنية للمجتمع والتأريخ، تعريب: محمد عبد المنعم الخاقاني، دار الروضة، لبنان/بيروت، طبعة عام 1996م.

■ محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتاب العربي، العراق/بغداد، طبعة عام 2009م.

■ محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، مصر/ القاهرة، 1998م.

■ محمد طاهر الجوابي، المجتمع والأسرة في الإسلام، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2000م.

■ محمد عاطف، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، مصر/القاهرة، 1995م.

■ محمد كاظم الفتلاوي، الفرائض العبادية وأثرها في البناء الإنساني، دار حدود، العراق/النجف الأشرف، 2014م.

■ محمد كاظم الفتلاوي، المجتمع الإسلامي المعاصر، دار حدود، العراق/النجف الأشرف، ط2، 2021م.

■ محمد كاظم الفتلاوي، المنظور القرآني في بناء الإنسان-دراسة تفسيرية، (أطروحة دكتوراه)، جامعة الكوفة، كلية الفقه، العراق/الكوفة، عام 2012م.

■ محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت-المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، الكويت، طبعة عام 2001م.

■ مصطفى عبد الواحد، المجتمع الإسلامي، دار البيان العربي، السعودية/جدة، ط3، 1984م.

■ منير حميد البياتي، الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي، دار النفائس للنشر والتوزيع، لبنان/بيروت، طبعة عام 2013م.

■ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار إحياء التراث العربي، لبنان/ بيروت، ط2، 2005م.